قراءة التقارير والمقالات التي تتحدث عن معانياتهم، فزياراته الدورية للمخيمات والاحياء الشعبية بقيت منتظمة ومتواصلة، رغم انشغالاته وهمومه المتعددة، وغالبا ما كان يتجمع حوله الناس، ويشرع في التحدث لهم بلغة الخطيب الشعبي، المحرض، الذي يعرف حق المعرفة اللغة التي يفهمها ويتفاعل معها البسطاء كان يتحدث لهم بسلاسة وتلقائية وبلا تكلف او انجرار الى المصطلحات الطنانة الرنانة، "كليشيهات" المثقفين الاستعراضية، التي يستعملها البعض لابراز عضلاتهم الكلامية امام الناس فهموا ما اراد ام لم يفهموا - لا فرق المهم ان يستعرض ويتفذلك، وكفى -.

وفي هذا الجانب، فاننا لا نبالغ اذا قلنا ان سر نجاح غسان النضالي والادبي تمثل في تواضعه الثوري، فلو وضع نفسه في قالب المثقفين واغلق على نفسه الباب، وعاش مع كتبه ومقالاته، البعيدة عن التفاعل مع الواقع لما نجح في ان يبدع هذه المجموعة الرائعة من الروايات والاعمال الادبية المتنوعة الاخرى، هذه الاعمال التي نبضت فيها الحياة وجرى في شرايينها الدماء الحارة، وظلت حية، حيوية، محافظة على ابعادها الوطنية والسياسية والكفاحية والتربوية والتعبوية، ولو ابتعد كنفاني عن الناس واسترخى على كرسي مريح في احد صالونات التنظير، لما تحولت نتاجاته المتنوعة الى مادة تعبئة وشحن يتغنى بها الاطفال ويحفظها الرجال في صدورهم كوصايا لا تحتمل الخدش او التحريف.

يستحضرنا بالطبع ونحن نكتب هذه السطور، صورا استعلائية لبعض الكتاب (هذا اذا ما رضينا ان نستعمل كلمة الكتاب هنا، ولو من باب التجاوز) الذين ما ان يصدر للواحد منهم مجموعة شعرية او قصصية، بصرف النظر عن مستواها، حتى يركب حصان الغرور ويطلق لنفسه عنان الترفع واحتقار الاخرين، وكأنه بعد هذا الديوان الذي تسرح فيه الاخطاء النحوية وتمرح قد امتلك ناصية الكتابة، ووصل الى درجات الكمال... فاين هؤلاء من المبدعين؟؟ اين هم من ناظم حكمت وبابلو نيرودا وغوركي، وحنا مينا... واين هم من كنفاني؟؟

فأديب يكتب للناس ويحتقرهم ليس بأديب، وأديب يكذب على الناس ولا يستعمل قصصهم وحياتهم الا وسيلة لشهرته، لا يمكن باي شكل من الاشكال ان يكتب لنتاجاته النجاح حتى ولا (كانسان من الناحية الاجتماعية).

لقد كان كنفاني "جادا ووسيما... وليس من النوع الذي ما يكاد يلقاك حتى يفتح صدره على مصراعيه ويدلق كل ارائه عن الناس والحياة... كان قليل الكلام". (١٠)

اجل فغسان كان متحدثا لبقا، ولكن عندما يتطلب الموقف ذلك، يشد السامع بخفة ظله وثقافته ولا يفرض نفسه فرضا على مستمعيه، فهو يعرف متى يتكلم ومتى يصمت.